المازيغية ركيزة من ركائز الهوية الوطنية

د. أحمد نوح

جامعة مولود معمري، تيزي وزو

تعد الجزائر إحدى بلدان الوطن المازيغي المسمى تمـــوزغا التي تضرب جذورها في أعماق التاريخ. وبمناسبة طرح المسألة المازيغية في التعديل الدستوري، نحاول في هذه الورقة المقتضبة جدا، تقديم نبذة عن المازيغية؛ حضارة وتاريخا ولغة، ومكانتها في واقع الجزائر اليوم.

الحضارة المازيغية

يرجع تاريخ الإنسان الأول الذي عرف في الشمال الإفريقي على الأقل إلى 9000 سنة قبل الميلاد حسب الاكتشافات الأثرية التي يضيق المجال لاستعراضها هنا (حمداوي، الحضارة الأمازيغية، ص.29، شفيق، ثاثة...ص.19). وقد تكلم هيرودوت عن وجود الأمازيغ في هذه المنطقة 6.000 سنة قبل الميلاد؛ ومع دخول الفينيقيين والرومان أطلقوا على الأمازيغ تسمية "الأفارقة"، وميزوا بين ثلاث شعوب: الليبيين والمور والنوميديين. كما أطلق عليهم الرومان تسمية "البربر"، وتعني هذه التسمية الأشخاص الذين لا يفهمون لغتهم. مثلما يسمي الأمازيغ من لا يفهم لغتهم "أكناون"، لكن اشتهرت تسمية البربر خاصة بعد صدور المؤلف

الضخم للعلامة ابن خلدون حول قبائل وممالك البربر (شفيق، ثلاثة..ص.08 وما بعدها).

تتميز الحضارة المازيغية باستمرارية عجيبة رغم مرور عدة دخلاء غزوا أراضيها طمعا في ثرواتها؛ حيث استقر الفينيقيون على ضفاف الشمال الإفريقي في القرن الأول قبل الميلاد –على الأرجح– بعد علاقة قران بين الملك لارباس والملكة ديدون أنشئت على إثرها مدينة قرطاج سنة 816 قبل الميلاد (شفيق،ثلاثة..ص.14).. وجاء الاحتلال الروماني منذ القرن 05 قبل الميلاد فواجهه الأمازيغ بشراسة في الحروب التي نشبت بين الرومان والقرطاجيين. ومنذ القرن 03 ظهر ملوك أمازيغ مشهورين خاضوا حروبا ضد الغزاة خاصة سيفاكس وماسينيسا ويوغورتن. ومع دخول الأمازيغ في الإسلام أنشؤوا على مر القرون أكثر من 20 من الممالك البربرية الإسلامية (شفيق،ثلاثة...ص.59).

واشتهرت الحضارة المازيغية في عدة مجالات نذكر على سبيل المثال: العمران فقد اشتهرت بالأهرامات المنتشرة في ربوع الوطن المازيغي، وما زالت بقاياها إلى اليوم؛ كأهرام إمدغاسن في باتنة، وهرم تيبازة، وهرم دوكة في تونس، وهرم سيدي سليمان في المغرب.. الخ كما أن المدن لها طراز خاص بهم مثل مدن مزاب (القصور)، والأوراس، وقصور المغرب... كما عرفوا بتطوير تقنيات الفلاحة، دون الحديث عن مجال الفن والأدب. وقد أنجب الوطن المازيغي الكثير من العلماء في كافة الميادين مثل الدين والفلسفة والعلوم الأخرى؛ وعلى سيبل المثال لا الحصر ابن رشد (1126–1198م) الذي ساهم في تطور الفلسفة وابن أجروم الصنهاجي

(1273-1323م) الذي وضع أجرومية اللغة العربية، وعباس ابن فرناس (810-887م) العالم الذي كانت له عدة اختراعات في الرياضيات والفيزياء، وعرف أنه أول من قام بمحاولة التحليق، وابن منظور الإفريقي (1232م) الذي وضع قاموسا هاما في اللغة العربية، وابن بطوطة اللواتي (1304-1377م) أحد الرحالة الأوائل الذين طفوا على الكثير من البلدان...الخ (حمداوي، الحضارة الأمازيغية، ص.077 وما بعدها).

الجزائر المازيغية

يثبت التاريخ والأنتربولوجيا والعادات والتقاليد أن أغلب الجزائريين أمازيغ، غير أن نسبة قليلة منهم لا يزالون يحافظون على لغتهم وسيتعملونها. لكن يبقى السؤال الأساس: هل توجد لغة مازيغة واحدة أو لغات مازيغية؟

يفترض المؤرخون أن اللغة المازيغية كانت موحدة (اللغة الليبية القديمة) غير أن العوامل التاريخية والجغرافية أدت إلى انقسام المازيغية إلى لغات تتفاوت في التقارب بينها. من تلك العوامل التي حالت دون وحدة لغتهم عدم وجود دولة واحدة تجمعهم لمدة طويلة، وشساعة وطنهم واختلاف تضاريسه؛ بحيث انقسمت القبائل المازيغية وتشتت عبر الجبال والصحاري وعاشت في عزلة تامة عن بعضها لقرون طويلة...الخ. ومع ذلك تشترك هذه اللغات في قواعد النحو والتركيب وفي قسم لفظي معتبر، بالرغم من تفاوت نسبة التفاهم والتواصل بين الناطقين بها.

فإذا كانت اللغة في تعريفها البسيط هي نسق من الإشارات للتواصل بين

مجموعة من البشر، فإن تنوعات المازيغية هي "لغات" كلما أصبح التفاهم غير ممكن بين ناطقيها. وفي انتظار الدراسات المقارنة بين هذه التنوعات يمكن أن نجمع أهم اللغات المازيغية في الجزائر في سبعة؛ وهي:

- **تاقبايليت:** تضم عدة تنوعات لهجية، وتوجد في منطقة القبائل؛ مثل تيزي وزو، وبجاية، وتاساحليت بسطيف وقنزات، وأوقاس وتيشي، وأخيرا تزديموحت بمدينة تيزي وزو.

- **تاشاويت:** وتوجد في منطقة الأوراس التي تضم قبيلتين كبيرتين، وهما النامشة والحراكتة وتشمل 06 ولايات، وعدة تنوعات لهجية هي: تكوت وخنشلة ومروانة ومشمونش تبسة وسوق اهراس.

- **تومزابت:** وتوجد بمنطقة مزاب بولاية غرداية والتي تضم سبع مدن، ويمكن إضافة لهجة تقرقرنت التي ينطقها سكان ورقلة إلى المزابية للقرب الشديد بينها وبين المزابية.

- **تاتارقيت أو تماهقت:** وتوجد بمنطقتي طاسيلي الاهقار وطاسيلي نازجر بالإضافة إلى أدرار.

- **تاشنويت** أو تاقبيليت ن تيفزا، وتنتشر في تيبازة وقورايا وشرشال، ويمكن أن نجمع معها اللغة المتداولة في جبال الونشريس بولايات عين الدفلى، تيسمسيلت، البليدة.

- **تشلحيت:** وتوجد في منطقة بوسمغون والبيض وأسيل وسعيدة.

- **تزناتيت:** وتوجد في ولاية أدرار.

من بين هذه اللغات السبع تبقى القبائلية اللغة الوحيدة التي تقدمت بشكل كبير في ميدان الدراسات والبحوث الأكاديمية والتدريس على كل المستويات، ويليها بشكل أقل اللغة الشاوية، بحيث يوجد اليوم آلاف المتخرجين الجامعيين بهتين اللغتين. وهذا يدل على النقص الكبير في الدراسات حول اللغات المازيغية الأخرى.

المازيغية في الدستور الجزائري

طرحت المسألة المازيغية لأول مرة في العصر الحديث سنة 1949 داخل حزب الشعب الجزائري. غير أن اهتمام الحركة الوطنية انصب بعدها على مكافحة الاستعمار إلى حين استرجاع السيادة الوطنية، ومن بعدها إنشاء الدولة الوطنية. ومع ذلك تعود الجهود العلمية لترقية المازيغية إلى نهاية القرن التاسع عشر مع أعمال عمار اوسعيد بوليفة وبن سديرة ومن تبعهم منذ النصف الثاني من القرن العشرين؛ مثل مولود معمري ومئات الباحثين الذين حذوا حذوه إلى اليوم (شاكر، ئمازيغن أس أ،ص.24 وما بعدها). في سنة 1995 اعتبرت الدولة الجزائرية المازيغية ركنا من الأركان الأساسية للهوية الوطنية، وأنشئت بموجب ذلك المحافظة السامية للمازيغية، ليتم الاعتراف بالمازيغة لغة وطنية إلى جانب الإسلام والعربية في الدستور الجزائري، وبموجب التعديل الدستوري لسنة 2016 تم ترقية المازيغية إلى لغة وطنية ورسمية.

تعتبر المازيغية إلى جانب الإسلام واللغة العربية في الدستور الركائز الثلاثة

الأساسية للهوية الجزائرية التي توحد بين الجزائريين. ولم يأت هذا التتويج إلا بعد نضال سلمي وجهد علمي لتحقيق تصالح الجزائر مع موروثها الثقافي والحضاري. وتنص المادة 04 من الدستور على أن "الأمازيغة هي أيضا لغة وطنية" غير أن المادة 212 المتعلقة بالموضوعات التي لا يجوز تبديلها لم يشر إلى المازيغية، وعليه يطالب الكثير من رجال القانون إضافة المازيغية إلى المواد الصماء؛ لحمايتها من أي اعتداء باعتبارها ركيزة من ركائز الدولة، ما دامت تشكل إرثا لغويا وثقافيا وتاريخيا لكافة الجزائريين.يبقى مسار ترقية المازيغية بكل تنوعاتها طويلا يحتاج إلى تعزيز الدولة لوسائل حمايتها من الاندثار، وفتح باب البحث والدراسات المازيغية في الجامعات، وتشجيع تدريسها للجزائريين، وتوسيع استخدامها في كافة المجالات إلى جانب اللغة العربية، حتى تكون المازيغية عنصر تلاحم إلى جانب الإسلام واللغة العربية توحد كافة الجزائريين؛ من أجل بناء الجزائر الجديدة.

المراجع

1. د. جمال حمداوي، معالم الحضارة الامازيغية، مكتبة نور،2019.

2. د.العربي عقون، الأمازيغ عبر التاريخ، نظرة موجزة في الأصول والهوية، التنوخي للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط،المملكة المغربية، الطبعة الأولى، 2010.

3. محمد شفيق، ثلاثة وثلاثون قرنا من تاريخ الأمازيغيين، جمعية البحث والتبادل الثقافي الأمازيغية، الرباط، 1989.

4. د. سالم شاكر، ترجمة عبد الله زارو، ئمازيغن أسَا- الأمازيغيون اليوم، 1990.